

أحمد بونفور

I - نقرأ عددا وفيرا من النصوص النقدية التي تعلن عن وجود أزمة للحديث النقدي وعن ضرورة ايجاد مشروع في هذا الميدان . بعض النصوص تقترح فرضيات عمل . الا انه ليس في نيتي القيام بقراءة نقدية لهذه المشاريع . وسأكتفي ، أولا ، بتوضيح من وجهة نظر منهجية ونظرية سابقة ، او موازية ، لكل مشروع في ميدان ما يسمى بـ (النقد) .

شيء جيد أن توجد محاولات ، ومشاريع للتحليل النقدي ، وينبغي تشجيع الانتاج في هذا المجال . الا أن الحديث يبدأ ، منذ الآن ، عن أزمة وهذا يبدو لي امرا تشخيصيا وكاشفا عن القسمة الجوهرية لهذا الحديث :

(أ) - « الحديث النقدي في أزمة » معناه ان هذا الحديث غير مقروء (مباع) مثلما هو العمل الأدبي .

(ب) هذا الحديث لا يستطيع انجاز سير لعمل أدبي ما بنسقية : اذ تفلت منه أوجه عديدة لهذا العمل .

(ج) - هذا الحديث دوغمائي ، وذلك لانه - وبشكل جوهري - حديث مفتاح ، ومن هنا تنبع عدم فعاليته .

وبالتالي فانه لا توجد أزمة بالمعنى الكلاسيكي للاقتصاد الليبرالي ، الا حين يحدث تضخم في الانتاج أو حين يقل الانتاج (الشيء الذي لا يتوفر في حالتنا هذه) .

الأزمة ، كما افهمها ، تكمن في واقع أن ثمة انتاجا الا انه انتاج مشكوك في نوعيته . ومن هنا ينبع بعض من عدم الميل الى النصوص النقدية .

لا يكفي أن نلاحظ وأن نحدد نمط الأزمة الذي يجور الحديث حوله . وانما ينبغي تفسيره ، أي ينبغي أن نطرح مسألة شروط امكانه .

ومن جهتي ، فان التفسيرات كلها تستطيع ان تتركز في موضوعين : النسيان والعقدة القومية .

سأعالج في هذا المقال الموضوع الاول : أما الثاني فسأنتشره في مؤلف

قيد التحضير بالاشتراك مع أحد الأصحاء .
ودون أن نضع بالتحليل بعيدا (وهو أمر له اهميته) سنأطلق من
حالتين محدنتين : ما هو مضمون كلمة نقد وأدب ؟ ثم ، ماذا كانت ممارسة
النقاد القدماء ؟

2 . 0 - مثل طالب متوسط ، أعود الى « لسان العرب » وانسخ : **النقد** :
تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها .
ومن ذلك أستخلص عدة ملاحظات :

- كلمة **النقد** ليست ، إذن ، في أصلها كلمة مخصصة لممارسة نصيحة
أمر بديهي ! الا أنه ينبغي ان نستخلص منه مستتبعاته ، كل مستتبعاته .
- الكلمة مستعارة من ممارسة مؤسسية وحقوقية ، هي الكشف عن
اللمع النقدي الزائفة ، وبذلك فهي تمييز للصحيح من الفاسد ، أنها عملية
لا يمكن أن تكون الا علمية وموضوعية والا فان الاقتصاد (البقية) قد دمر .
بديهة ثانية ! وهنا أيضا ، علينا ان نستخلص كل المستتبعات وهذه
بضعة منها .

2 - 1 - لماذا اختيرت كلمة نقد وليس كلمة أخرى ؟ لماذا الاستعارة
من ميدان الاقتصاد وليس من ميدان آخر ؟
هذان السؤالان يهدفان الى تازيم الحديث الذي يكتفي باستعمال اللفظ
المستعار استعمالا « طبيعيا » وصولا الى تحبيده . ثمة اختيار ، وهذا
الاختيار تشخيص لشيء ما ، شيء منسئ من طرفنا . ينبغي إذن القيام
بحفريات لسانية ، لظهور هذا المنسئ . غياب هذه الحفريات له ، هو نفسه ،
مستتبعاته الخاصة به . لكن ، سيقال ، ان **النقد** ليس الكلمة الوحيدة
المستعملة في هذه الحالة . فعلا ، فالموازونات ليست سوى تطبيقات عينية
للنقد الأصلي . لقد كان يقام بالتمييز بهدف اكتشاف الشاعر الحقيقي
والجيد . وتقوم نظرية قدامة (أنظر مقدمته لـ « نقد الشعر ») على طرح
قواعد بإمكانها مساعدتنا على تمييز الشاعر الجيد من الرديء . ودراسة
تاريخ هذين الملفوظين والملفوظات المجاورة لهما هي عمل ذي الحاح علمي
وايديولوجي .

ان عملية تمييز الناقد هي عملية حقوقية للغاية .
الطابع العلمي واضح : فبالإضافة الى تراكم المعارف ، نستطيع في
نفس الوقت السيطرة على المجال المعرفي الكلاسيكي ، وعلى قاعدته . والطابع
الايدولوجي الذي احتفظ به هنا هو : انجاز تاريخ للسان وأرغام الممارس
(مستعمل اللغة) بالتالي على أخذ وعي بالمكان الذي يتكلم منه ، عن
أي شيء يتكلم وكيف يتكلم عنه . بكلمات أخرى ، ان نمكنه من فهم ان
اللسان هو مكان مجموعة متعددة من الترسبات التي ينبغي للعب بها .
ولكي نسهب في كلام الخطيبي نقول ان أمواتنا هم أحياء في لساننا ، وبالتالي ،

فهم يسكنوننا ، دون علم منا ، بواسطة هذا اللسان . ماذا نعرف نحن عن امواتنا ؟ وماذا نقول عنهم للأحياء ؟

ان الجهل بهذا يعود الى مواصلة الممارسات القديمة بشكل لا واع (لا وعينا ، نسياننا) .

لهذا تستمر النصوص النقدية في تمييز الجيد من الكتاب عن الرديء منهم ، المخلص عن الكاذب ، الواعي عن المستلب ، بل وحتى الثوري عن الرجعي .

ما الفرق بين هذا الموقف وموقف الموازنة ؟ ليس ثمة أي فرق في العمق : هيكليا ، لم يتغير شيء . لم يتغير شيء سوى المضامين ، وهو موقف مشترك بين الميتافيزيقيا الاسلامية والارسطية . لا أقول أنه ليس هناك فرق ينبغي القيام به في هذا المستوى : الا أنني أفضل القول ، من جهتي ، بأن ليس هناك ممارسة ثورية أو رجعية للسان . الممارسة الثورية هي تلك التي تحول اللسان في كل مستوياته : (المعجم ، النظم ، علم الدلالة ، علم الجمال ، التخيلي ، . . الخ) .

اما الممارسة الرجعية فهي تلك التي تواصل أقدم الخططات . كيف نميز بين الممارستين ؟

ان التاريخ (الذي هو في ذات الوقت ذاكرتنا كنسيان متدارك ومستقبلنا المشترك) وحده سيقدر .

2 - 2 - ان عملية التمييز عملية حقوقية للغاية . هذا يعني أن الحديث

النقدي يعرض قوانين حقوقية . هذه الحقوقية (النموذج الانساني الانفس في المجتمع الاسلامي ، اليس هو القاضي ؟) هي سلطة . وبذلك فان الناقد هو واضح يد سلطوي : انه يقرر ما هو مباح مما ليس هو كذلك . انه المصفاة التي تقرر فئة اجتماعية (هي فئة الادباء) بواسطة أن هذا الفجاج أو ذاك ينتمي الى الذوق السليم أو لا ينتمي اليه .

ان الناقد الادبي القديم هو ، جوهريا ، ناقد أرستقراطي ، ونفس الشيء نقوله عن الادب الذي يصطفيه . لا تغيير دون تغيير للفئة ، لا مكان للادب الشعبي . اليس غريبا أن قليلا من النصوص (هذه النصوص التي كانت خبز الشعب اليومي) الشفوية هو الذي تم الاحتفاظ به ونقله ؟ وباستثناء الامثال وبعض الملاحظات المدونة (المطبوعة بموقف قريب جدا من موقف الانثوغرافيين) ، فان ما من أدب معروف كتب عن الادب الشعبي .

لكن ، ماذا يفعل نقاد اليوم ؟ ان الناقد يدعي تمكنه من قوة تحسب حساب الاشياء . والغريب أن هؤلاء النقاد ، كيفما كانت اختياراتهم ، لا يحدثوننا قط عن وجود ثقافة شعبية لها تقنياتها ، ومراسيمها ، ولسنتها . انهم لا يتحدثون عنها الا كي « يستاهموا » منها : وتلك انثوغرافية جد بارعة .

ينبغي ، إذن ، تغيير الموقف : فالممارسة النقدية ليست سلطة ، على الأقل هي ليست سلطة رقابة وإدانة . ليس هناك أدب جيد وأدب ردي : ثم ممارسات لكل منها وظيفة تنجزها بهذا القدر أو ذاك في لحظة معينة من التاريخ .

3 - 0 - وماذا عن كلمة أدب ؟

أدب : الذي يتأدب به الأديب من الناس .

لأنه يؤدب الناس الى المحامد وينهاهم عن المقابح .

أديب : من قوم أدباء .

بعض الملاحظات تكفي لرفع النسيان والتهيان اللذين يتيه فيهما

الحديث النقدي اليوم .

3 - I - تعريف الادب هو تحصيل حاصل . مع ذلك فان ما يعرفه هو

واقم أن « أناسا » (فئة اجتماعية) يقررون ان هذه الممارسة او تلك هي

ادب او غير ادب .

هذا مهم جدا لسببين :

I) فالادب ليس ، إذن ، قيمة كونية لا زمنية . التعريف لا يقول

ذلك ، الا أنه يتضمنه بشكل جنيني . ينبغي إذن ان نطرح على أنفسنا

سؤال : لماذا لم تخرج هذه الفئة من الأدباء بهذه الخلاصة وانما خرجت

بسواها : هي كونية الادب او رفعه الى مستوى المثال .

ب) الادب ممارسة اجتماعية تجانس (بضم التاء وكسر النون)

الناس الذين يتعاطونها : انها إذن طريقة وجود (تفكير ، تصرف) . هذا

يعنى أن كل من يتهم هذه الممارسة سيقيم اقصاؤه . وينبغي ، إذن ،

التساؤل حول هذه الاقصاءات .

3 - 2 - الادب ، من حيث هو ممارسة اجتماعية ، هو أيضا « ثقافة »

تجعلنا نفكر كثيرا في « استقامة » الكلاسيكية الفرنسية .

انه يتحدد بـ :

أ) أخلاق : يقول لنا التعريف ما فيه الكفاية عنها ، واساسها

الديني والميتافيزيقي واضح (الخير / الشر) .

ب) علم جمال مثالي : (جميل / قبيح) يطرح على نفسه مسائل

المقنة بمصطلحات التأمل (الاستهلاك) .

ينبغي ، إذن ، أن ننفذ حفريات لهذه الاخلاق - الجمالية لكي نحسن

التحكم أكثر في الترسبات التي تهدد بالانزلاق في احاديثنا النقدية او بكبت

أخرى استراتيجية .

مثلا : لماذا ليست هناك محاضرات في علم الجمال في الجامعة او خارج

الجامعة ؟ وحتى في المدارس التي تسمى بمدارس الفنون الجميلة يتقلص

علم الجمال في ماراتون كرونولوجي يسمى « تاريخ الفن » .

ولا اعتقد أن بمقدور ممارسة فنية أن تتقدم دون تأمل في الفن الذي ادعوه ، من جهتي ، « علم الجمال » .
 3 - 3 - ثمة ملاحظة أخيرة ، لها أهميتها وهي أن الأدب لا يقتلص في بعض الاجناس الادبية . والاديب يغطس في كل الانظمة الدراسية بنفس الكثافة ، ربما باستثناء ، الانظمة الدراسية الدينية .
 والحال أن الأدب اليوم يبدو مقلصا في القصة والرواية والشعر والمسرح .

هذا التقليل يبدو بديهيا ولا احد يتساءل عن لماذاه . هنا أيضا نجد نسياننا . والواقع أننا نقتال في كل نسيان وعينا التاريخي ونغذي شراسة أمواتنا .
 ومن جهتي ، أحب كثيرا لو يتم التأمل في هذه الفرضيات :

(أ) أن تقليل الأدب إلى بضعة اجناس ادبية بعضها حديث العهد يتطابق أيضا مع تقليل في مضمون النقد .
 (ب) تقليل الأدب ليس حديث العهد عندنا . فلمرات عديدة ، أقام فقهاؤنا المحرق لأجل مدنس القعسيات (ابن رشد) .

في أي نطاق لا يعيد تقليل اليوم انتاج نفس الحركات التي وجدت منذ قرون ؟ بما أننا لا نتوفر على دراسات في هذا الموضوع ، فمن المسموح لنا أن نقترحها كفرضية .

4 - خلاصات :

مما سبق ، استخلص ما يلي :
 - ثمة تمايز جوهري بين النقد الأدبي الصحفي والحديث النقدي الذي عينت أعلاه بعضا من مهامه .
 الأول يكتب بسرعة ، وبذلك فهو رد فعل على قراءة . وهو ي أغلب الاحيان دعاية مع أوصد العمل المقروء . علينا بالتأتي ، الذي سادعوه « قراءة نقدية » أو « شاعرية » وهو مغاير جذريا للأول : أنه ليس رد فعل ، بل هو تأمل طويل ، ليس دعاية ، بل انتاج ، ليس علم جمال للجميل والتبجح ولكنه انتشار لسير الكتابة . ليس بالنسبة لهذه الأخيرة معيار مطلق لتحديد أو حصر ما هو أدب مما هو ليس كذلك ، أنه ، إذن ، حديث محدد تحديدا متصافرا من طرف عدد من القوى .

- الشاعرية التي نزيدها هي حديث « مثقف » . إذا أقنعنا جفريات نسياننا بأننا في حاجة إلى نظرية للتاريخ ، للمجتمع ، للايديولوجيات وللذات ، فإن علينا ألا ننسى أننا نعمل على جزء من اللسان ، على نمط معين من اللسان . أي أننا في حاجة إلى نظرية للسان ، للأدب ، للجنس ، الخ . فالحديث النقدي ، إذن حديث ملوث ، متعدد : أنه حديث مست منحرف . وأولئك الذين يعتقدون أنهم يمتاكون حديثا فريدا واحديا ما هم

الواصلين للميتافيزيقيا التقليدية . والخال أن المسألة كأمنة هنا بالضبط :
هل نحن قادرون اليوم على التمسك بحديث الانحراف هذا ؟ يبتو لسي ،
اليوم ، أن بمقدور الأدب وحده ، ربما ، أن يصبح مكانا مهمشا لممارسة
منحرفة ملتذة ، بسبب أنها ليست نفعية . لكن ، ما أن يريد الحديث النقدي
أن يعيد هذه الممارسة الى صوابها لايلائها وظيفة اجتماعية وحيدة ، حتى
تصبح مهددة بالموت ونحن معها ، وذلك لأنها عودة للاخلاق الحقيقية تحت
أقنعة جديدة .